أسلوب التمني عند العذريين
دراسة في سياقاته واستخداماته عند جميل بثينة وقيس ليلى

د. عبلة الصديق عثمان محمد *

تمهيد:

العذريون يوحدون أجناس الطبيعة، وأجناس الحيوان والإنسان وذلك من خلال:

الصلة بالجماد مثل: الجبال والنبات والأودية، وذلك من خلال لقائهم بالمحبوبة في هذه الأماكن.

الصلة بالحيوان مثل: الجمال من خلال حملها للحبيبة، والظباء في مشابهتها للحبيبة.

الصلة بالطير خاصة القطا وذلك من خلال تمنى أن يكون على أجنحة يحلق بها.

كثرة الوشاة والحساد.

فالوجود الكوني كله موحّد من خلال دواخلهم النفسية التي جعلت منهم أُناساً شديدي الرقة والحساسية يألفون الجماد والحيوان والطير، وينفرون من الإنسان الذي يحول بينهم وبين المحبوبة، ما لم يكن هذا الإنسان يعمل في مهنة إنسانية كالطبيب الذي تمنى المجنون أن يكون محله:

يقولون ليلى بالعراق مريضة فيا ليتني كنت الطبيب المداويا[1]

فهل تمنى المجنون أن يكون هو الطبيب فيعالج ليلى أم تمنى أن يكون هو محل ذاك الطبيب فيفوز بما فاز به من قرب بليلى وعطف عليها، وعلاج لها.

لأن التمني: هو الطلب الذي لا يرجى وقوعه، كقول عنترة:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمى صباحاً دار عبلة واسلمي[2]

وكذلك توقع أمر محبوب في المستقبل، ولكن البلاغيين يميزون بين نوعين في التمني:

---

* الأستاذ المساعد - جامعة أم درمان الإسلامية -كلية اللغة العربية-قسم الدراسات الأدبية والنقدية.

[1] ديوان قيس بن الملوح، رواية أبي بكر الوالبي، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1999م، ص38.

[2] ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: محمد خداش، دار الغد الجديد – القاهرة، ط1، 2014م، ص114.

الأول: توقع الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه مستحيلاً، كقوله تعالى: (يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً)[1].

وقول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب[2]

الثاني: توقع الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه ممكناً غير مطموع في نيله، كقوله تعالى: (يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ)[3].

والأداة الموضوعة للتمني: "ليت"، وقد تستعمل ثلاثة أحرف للدلالة عليه:

أحدها: هل، كقوله تعالى: (فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا)[4].

والثاني: لو، سواء كانت مع "ودّ" كقوله تعالى: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)[5]، والثالث: لعلّ، كقوله تعالى: (لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى)[6].

ومنه قول الشاعر:

أَسِرْبَ الْقَطا، هلْ مَنْ يُعيرُ جَناحَهُ لعلّي إلى من قَد هَويتُ أَطِيرُ[7]

ويكون في مقام طلب الشيء المحبوب الذي لا قدرة للطالب عليه، وقد استخدم هذا الغرض كثيراً في الغزل حيث يقف الشاعر على ديار المحبوبة ويجسد منها أُناساً يخاطبهم ويناجيهم ويحييهم فيجد في هذا التخاطب الأماني والسلوى في تخفيف ما يعانيه من اللوعة والعذاب.

لذلك نتج هذا الأسلوب من الغناء "العاطفي اللهيف الذي يصدر عن العاشق، يعبر عن مشاعر مشتعلة، وحنين معذّب لا يهدأ بحيث يكون ذلك الغناء طاقة تنفيس تحقق من اصطخاب

---

[1] سورة النساء، آية: 73.

[2] ديوان أبي العتاهية، دار صادر – بيروت، 1964م، ج1، ص19.

[3] سورة القصص، آية: 79.

[4] سورة الأعراف، آية: 53.

[5] سورة القلم، آية: 9.

[6] سورة غافر، آية: 36 – 37.

[7] ديوان قيس بن الملوح، ص97.

العواطف وتأزمها"[1]. وعادة الشعراء يكثرون من النظم فيه، ولقد ظهر في العصر الأموي ثلاثة أنواع من الغزل.

الغزل العذري الذي يقتصر فيه الشاعر على محبوبة واحدة يتغزل بها بأسلوب عفيف يتلاءم مع الفكر الإسلامي. والغزل العمري أي الفاحش مع تعدد الحبيبات. والغزل التقليدي الذي كان يلجأ إليه الشعراء باستجابة منهم لتقاليد القصيدة العربية التي اعتادوا على البدء بها بالغزل"[2].

وقد كان الغزل في نجد والحجاز على نوعين: بدوي، وحضري، فالبدوي غلبت عليه العفة والرصانة لسذاجته وقربه من الفطرة، وبعده عن ملاهي الحضارة، وعُرف أصحابه بالشعراء العذريين نسبة إلى قبيلة بني عذرة الذين اشتُهروا بالحب الصادق العفيف، وكانت مواطنهم في بوادي نجد والحجاز. وهم في غزلهم لا يشببون إلا بامرأة واحدة، وأكثر ما يطيب لهم وصف ما يلاقون من ألم البعد ومرارة الصدّ والهجران"[3].

وقد عرف أصحاب هذا الحب بالعفة والطهر والشرف والنزاهة، والبعد عن الفحش والادعاء، ومما لا يليق بشرف الفتاة البدوية المسلمة، وخاصة وأن هؤلاء كانوا يحبون في كثير من الأحيان ابنة العم أو ابنة القبيلة التي ينتمون إليها بروابط الولاء والدم"[4].

وقد نشأ هؤلاء الشعراء في هذه البيئة وورثوا تقاليد هذه القبيلة وأعرافها وقيمها السمحة، إضافة إلى تحليهم بروح الدين الإسلامي والتمسك بأخلاق القرآن وسماحته. فمنهم:

جميل بن معمر (جميل بثينة):

"اسمه جميل بن عبد الله بن معمر. ولد نحو سنة 40هـ (660م)"[5] جميل واحداً من قبيلة عذرة؛ وهي إحدى القبائل التي تنزل وادي القرى في الجزيرة العربية.

---

[1] محاضرات في شعر علي محمود طه، نازك الملائكة، البصرة، 1964م، ص42.

[2] الغزل في الشعر العربي، سراج الدين محمد، موسوعة روائع الشعر، دار الراتب الجامعية – بيروت، ج4، ص20 – 21.

[3] ديوان عمر بن أبي ربيعة، يوسف شكري فرحات، دار الجيل – بيروت، ص6.

[4] محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي، يوسف شحدة الكحلوت، مدرس المساق، 2009م، ص139.

[5] تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين – بيروت، ط2، 1969م، ص479.

كان شاعراً مقدماً وراوية لهُدبة بن خشرم، وهدبة كان شاعراً وراوية للحطيئة، والحطيئة كان شاعراً وراوية لزهير وابنه كعب.

لقى بثينة وهي فتاة فأحبها، واستحكم الحب في نفسه فنشد وصالها في كثير من الأمل وقليل من اليأس، غير أنه لم يوفق إلى الزواج منها، وإنما ظفر بها رجل آخر تزوجها، وكان زواج هذا الرجل منها هو الضربة التي فجرت في نفس جميل أعمق مشاعره، والتي صاغت هذه المشاعر ألواناً من القصيد المبدع، فقد أضحت حياته يأساً لا أمل فيه، حيث قضى بعد ذلك فترة يعاني حرارة هذا الحب الذي لا جدوى فيه، فيقول الشعر الذي يرد به لُوّامه وعُذّاله لومهم له وعذلهم إياه، يحاول من منطق العاطفة الذاتية والحياة الشخصية، أن ينتحل الاعذار والمبررات.

وكذلك اندفع اندفاعة جديدة من اندفاعات الغرام يندب حظه ويعاتب بثينة للذي يلقى من انصرافها عنه، ثم تعرض الشاعر لمحنة جديدة فجرت أعماق ما في عواطفه وأثارت كل مكنوناته، وأطلقت لسانه بمنحى من القول جديد، عندما عدّد السبل إلى بثينة وحاول أن يتصل بها عن طرق مختلفات (محاولة الزيارة، والتغني بها، والتعرض لها)، فشكاه أهلها إلى السلطان، فأهدر السلطان دمه، فلم يعد في وسعه أن يطمئن إلى حياته بين قومه، فتنقل بين الشام واليمن، ونزل مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان وتوفي بها"[1].

قيس بن الملوّح "مجنون ليلى":

اختلف الرواة في اسم قيس واسم والده ويقول الأصفهاني هو: "قيس بن الملوّح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة"[2].

واختلاف الرواة في اسمه لوجود عدد غير قليل من المجانين في بني عامر كما أورد القاضي التنوخي، قال: "كان في بني عامر ثلاثة مجانين، معاذ ليلى، وهو معاذ بن كليب، أحد بني عامر بن عبيد، وقيس بن معاذ، ومهدي بن الملوّح الجعدي"[3].

---

[1] أُنظر: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، للدكتور شكري فيصل، دار العلم للملايين – بيروت، ط6، 1982م، ص291 – 295.

[2] الأغاني، للأصفهاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1415هـ، ج2، ص5.

[3] نشور المحاضرة، للتنوخي، ج5، ص102.

لم يذكر تاريخ مولده بالتحديد ولكن نجد الذهبي يقول عنه: "أن قيس بن الملوّح قد عاش في دولة يزيد وابن الزبير ودولة يزيد بن معاوية بدأت بتوليه الخلافة سنة 60هـ وانتهت بوفاته سنة 64هـ أما عبد الله بن الزبير فقد بدأت خلافته بخروجه على الأمويين عقب وفاة يزيد بن معاوية وبويع له بالخلافة سنة 64هـ واستمرت دولته حتى مقتله على يد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 73هـ"[1] وبهذا يكون قيس بن الملوّح قد عاصر الخلافتين معاً.

فالشعراء العذريون كان لشعرهم خصائص اهتم النقاد بدراستها، منهم: الدكتور محمد عثمان علي في قوله: أهم الصفات التي تميز الشعراء العذريين عن غيرهم في الآتي:

أولاً: إن هذا الغزل قد التزم أصحابه فيه لمحبوبة واحدة طيلة حياتهم أو زمناً طويلاً من حياتهم، فليس كغزل الاتجاه الحضري الذي صوّر الشعراء فيه تنقلهم من محبوبة إلى أخرى، وليس كغزل أصحاب البناء التقليدي الذين ورثوا عن سابقهم سنة البدء بالغزل في القصيدة الطويلة.

ثانياً: لقد برزت معاني الإسلام وروحه في غزل هذا الاتجاه بروزاً واضحاً، ويمكن لدارس شعرهم أن يلحظ هذا في عدة أمور، منها هذه الشكوى التي يتقدم بها الشعراء إلى الله تعالى مما يعانون من تباريح الهوى وألم الفراق[2]، كقول قيس بن ذريح:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقْدَ لُبْنَى كمَا شَكَا إِلَى اللَّهِ فَقْدَ الوَالِدَيْنِ يَتِيْمُ

يتيمٌ جفاه الأقربون فجسمُـه نَحيلٌ وعهدُ الوالدَيْن قديمُ[3]

وما يميزهم أيضاً: إخلاص المحب لمحبوبته، فهو لا يلتفت إلى سواها مهما كانت المغريات ومهما لقي من المصائب والمصاعب في سبيل حبه[4]؛ لأن الحب أوله: "العلاقة وهو شيء يحدثه النظر أو

---

[1] أعلام النساء، لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، ط10، ج4، ص87.

[2] في أدب الإسلامي (عصر النبوة والراشدين وبني أمية) دراسة وصفية تحليلية، محمد عثمان علي، ص502 – 503.

[3] ديوان قيس بن ذريح (قيس لبنى)، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، ط2، 2004م، ص28.

[4] في النص الإسلامي والأموي – دراسة تحليلية، نبيل المحيش وآخرون، المختار للنشر والتوزيع – القاهرة، 2006م، ص8.

السمع، فيخطر للبال ويعرض للفكر ويرتاح له القلب ثم ينمى بالطمع، وإدمان الذكر، ثم يقوى فيصير حباً، ثم يصير هوىً، ثم يصير خلةً ثم عشقاً، ثم ولهاً فيسمى صاحبه مدلهاً، ومستهاماً، وهائماً، وحيراناً، ثم يصير متيماً؛ وهو أرفع منازل الحب. لأن التتيم التعبد، والوجد ألم الحب، والهيمان الذهاب في طلب غرض لا غاية له، والكف والشغف اللهج بطلب الغرض"[1]. لذلك عندما تغزّل العذريون أكثروا من تمنيهم في لقاء المحبوبة، ولو نظرة عند بعضهم.

فمن المرجح أن الغزل العفيف كان منذ العصر الجاهلي ثم قوي في الإسلام أيام بني أمية وبالأخص عند قبيلة بني عذرة إذ تطور تطوراً سريعاً، فأصبح ينسب إليهم والتصق بهم، لذلك قيل له الغزل العذري.

لهذا فقد جعلت أسلوب التمني موضوعاً لدراستي هذه، وجعلت الدراسة ديواني جميل بثينة وقيس ليلى؛ لأنهما يمثلان رائدين من رواد الغزل العذري، وخصائص هذا الغزل المختلفة تتمثل في شعرهما.

والمنهج الذي في دراستي هذه هو المنهج الأسلوبي الإحصائي؛ لأنه يهتم باختيار الألفاظ وصوغ العبارات المنسقة في سياقات معينه تعبر عن شخصية الشاعر ونظرته إلى الحياة والوجود.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

فالمبحث الأول: عرفت فيه بالشاعرين ومكانتهما الشعرية عند العذريين.

والمبحث الثاني: درست فيه سياقات أسلوب التمني عند الشاعرين: جميل وقيس.

والمبحث الثالث: عرفت فيه أسلوب التمني وادواته وخصائصه عند البلاغيين.

والمبحث الرابع: حللت فيه خصائص أسلوب التمني عند الشاعرين.

ثم الخاتمة والمراجع.

حديث عن السياق:

السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية ومقياس تتصل بواسطته الجمل وتترابط.

والتحليل بالسياق يعد وسيلة من بين وسائل تصنيف المدلولات.

---

[1] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، باب الغزل، والنسيب، والهوى، المؤسسة المصرية العامة – القاهرة، (195-) م، ج1، ص161.

والسياق نوعان:

سياق لغوي وهو سياق داخلي. وسياق غير لغوي، وهو السياق الخارجي الذي ينزل الرسالة اللغوية، أو النص اللغوي في ظروف وروده وبواعث قوله.

وللسياق أنواع كثيرة. سياق مكاني – سياق زماني – سياق موضوعي – سياق تاريخي وغير ذلك[1].

وفي ضوء هذا السياق نستطيع أن نحلل أسلوب التمني عند العذريين عامة، والشاعرين خاصة، فهناك البيئة المحيطة بهما، والظروف الاجتماعية وتقاليد القبيلة التي تحول بينهما. وغير ذلك مما يحيط بهما من الخارج، مما جعل الشاعرين يلجآن إلى أسلوب التمني هروباً من الواقع كما سنرى في التحليل.

المبحث الثاني: سياقات أسلوب التمني عند الشاعرين:

وقد كان العذريون شديدي العاطفة مشدودين إلى ماضيهم، لهذا نجدهم وظّفوا هذا الأسلوب "التمني" في حنينهم إلى أيام الصبا والشباب وتمني الرجوع إلى هذه الأيام، وتحسرهم على ما انقضى منها، وحنينهم دائماً وأبداً إلى محبوباتهم. فمثلاً في:

تمني الرجوع إلى الماضي:

قول جميل بثينة:

ألا لَيتَ رَيْعانَ الشبابِ جديدُ ودهراً تَوَلّى يا بُثَيْنُ يعودُ

فنَغْدَى كما كنّا نكون وأنتُم قريبٌ وما قد تَبْذُلِينَ زَهِيدُ[2]

بدأ جميل هذه الأبيات بالتمني. وما أكثر ما تمنى العذريون. إذ أنهم يتمنون القرب من المحبوبة بإفراط الأماني فهو يجذبنا إلى تجربته باستفتاحه "ألا" فكأنه يشدنا إلى الاستمتاع، فهو يريد أن يستمتع بعناصر القصيدة التي استعرضها بعد أن تقدم به العمر، وأصبحت هذه اللحظات تمثل ومضات حلوة جذابة. فهو يتمنى أن تجدد أيام الشباب الماضية، لأن حبه لبثينة ليس

[1] أُنظر منهج السياق في فهم النص، د. عبد الرحمن بودرع، كتاب الأمة – قطر، عدد: 111. وأُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، عالم الكتب، ط3، 1998م، فصل الظواهر السياقية، ص261 – 310.

[2] ديوان جميل بثينة، ص38.

جديداً، فهو حب يعود إلى مراحل الصّبا والطفولة، لذلك يحن إلى هذه الأيام ويتمنى أن تعود. ولعل ذلك يوضح أن قدم تلك الأيام لم يؤثر في استمرارية حب جميل لبثينة.

وفي قصيدة أخرى يتمنى لقياها فيقول:

فيا ليتَ شِعْرِي هل تقولين بعدنا إذا نحن أزْمَعنا غداً لرَحيلِ

ألا ليت أياماً مَضَيْنَ رواجعٌ وليت النَّوَى قد ساعدتْ بجميلِ[1]

يتمنى جميل رجوع الأيام الماضية، أيام الصبا واللهو البريء، ليعبر عن عاطفته الإنسانية الرقيقة، ونفسه الحساسة المعذبة، فيحكي كل قصة حبه لها. وهذا ما ذكره هدارة في قوله: "ولم يكن أشهى إلى النفس في هذه البيئة من سماع شعر الغزل الذي يعبر عن عاطفة إنسانية رقيقة، ويصوّر نفساً حساسة معذبة تحكي قصة حب، أو تعبر عن وصال أو صد، أو تصف شكوى قلب ولم تكن هذه المواقف بطبيعتها بحاجة إلى قصائد مطولة بل إلى مقطوعات قصيرة محدودة تشيع فيها رقة اللفظ وبساطته وجمال الإيقاع الذي يريح صوت المغني عند إنشاده"[2].

ومن أمانيه أيضاً، قوله:

ألا هل لعهد من بثينة قد خلا وأورث شجواً لا يريمك من رد[3]

يتمنى جميل لو العهد القديم يعود مرة أخرى، فينعم فيه بقرب بثينة، فهو شاعر عذري عبر في شعره عن حبه وما يجده من متعة بلقائها.

ومرة أخرى كذلك نجده يتمنى العودة إلى موطن حبهما، فيقول:

أعائدة يا بثن أيامنا الأولى بذي الظلم أم لا ما لهن رجوع[4]

أما قيس ليلى يتمنى لو يجود الدهر برجعة واحده لأيام الصبا فيعيش تلك اللحظات وذلك في قوله:

فيا ليت أنَّ الدَّهْرَ جَادَ بِرجْعَةٍ وهَيْهَاتَ، إنَّ الدَّهرَ لَيْسَ بعَائِدِ[1]

---

[1] المصدر نفسه، ص111.

[2] الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، الدكتور محمد مصطفى هدارة، دار النهضة العربية – بيروت، 1995م، ص259.

[3] ديوان جميل بثينة، ص23.

[4] ديوان جميل بثينة، ص85.

ويقول أيضاً:

ألاَ لَيْتَ يَوْمَاً حَلَّ بِي مِنْ فِرَاقِكُمْ تَزَوَّدْتُ ذاك اليومَ آخِرَ زادِيَا[2]

أمنيات قيس ليلى في الرجوع لأيام الصبا متواصلة، حيث يقول:

ألا ليت شعري ما لليلى وما ليا وما للصبا من بعد شيب علانيا[3]

يتحدث قيس عن شوقه وحبه، وكيف كانت أيام صباه، فتمنى أن يعود إلى ذاك المكان حيث منابت الطفولة ومراتع الصبا، فيجدد ما انقضى من ذكريات بعدما علاه الشيب.

ويقول كذلك:

ألا هل إلى ليلى قبيل منيتي سبيل وهل للناجعين رجوع

إلى اللهِ أَشكُو نِيَّةً شَقَّتِ العصا هيَ اليَوْمَ شَتَّى وَهْيَ أمْسِ جَمِيعُ[4]

هذه الأبيات قالها قيس عندما رفع أهل ليلى الأمر إلى السلطان، فأهدر دمه وأباح قتله إن تردد على الحي؛ بسبب تشبيبه بليلى.

ولكن قيس استمر في تردده على الحي لعله يرى ليلى، فقرر أهلها الرحيل تجنباً للمشاكل، وعندما جاء قيس على ديار ليلى وجدها قد رحلت. فتمنى أن يرجع أهل ليلى لديارهم فيراها ويسلو معها.

فهنا نجد الألفاظ والمعاني حول حديثه المحزن المؤلم، بتصوير مواقف حبه الرقيق المرهف، وعادات وتقاليد القبيلة التي حالت دونه ومحبوبته.

يقول قيس ليلى في تعلقه بها من زمن الصغر حيث الحسرة والندم، فتمنى أن لو وقف الزمان دورته فظل طفلاً مع ليلى:

تعلّقت ليلى وهي غرّ صغيرة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صبيّان نرعى البهم يا ليت أنّنا إلى اليوم لم نكبر ولم يكبر البهم[5]

---

[1] ديوان قيس بن الملوح، ص53.

[2] المصدر نفسه، ص42.

[3] المصدر نفسه، ص126.

[4] المصدر نفسه، ص86.

[5] المصدر نفسه، ص28.

يحكي قيس عن علاقته وحبه لليلى منذ كانا يرعيان البهم في فترة الصبا، حيث علقها علاقة الصبي، فتمنى لو لم يكبرا إلى الآن ولم يكبر البهم.

وفي ذلك يقول الدكتور محمد غنيمي هلال في الحديث عن العاطفة والمشاعر التي صاحبت المجنون في رحلة عشقه وغرامه: "وليس هذا بدعاً من نفس شاعرة، تذوقت اليأس جرعاً، واصطلت بنار الحرمان، فاتخذت التعبير الفني متنفساً عن عاطفة متقدة، ومجالاً لتصوير أرق الشمائل وأبدع ما يجول في خاطرها من لطائف، فاستغرق قيس في عاطفته وعبر صادقاً عن هذا الاستغراق وأمتاح في صوره من معين شعوره ولا شعوره، بما لا نظير مثله في الشعر العربي"[1].

تمني اللقيا بعد طول فراق:

نجد في الشعر العذري حرارة العاطفة، وما يعانيه الشاعر من الحرمان، وقربه الشديد إلى النفس، فها هو جميل بثينة يحدثنا عن حبه لبثينة الذي أفنى عمره، انتظاراً لنوالها، الذي لم يصبه اليأس قط من الوصول، فيقول:

ألاَ ليتَ شِعْرِي هل أَبيتَنّ ليلةً ... بوادي القُرَى إِني إذاً لسعيدُ

وهل أَلْقَيْن سُعْدَى من الدهر ليلةً ... ومارثَّ من حبل الصفاء جديدُ

فقد تَلْتَقِي الأهواءُ بعد تَفاوُتٍ ... وقد تُطْلَبُ الحاجاتُ وهي بَعِيدُ

عَلِقْتُ الهَوَى منها وليداً فلم يَزَلْ ... إلى اليوم يَنْمِي حُبُّها ويَزيد

وأفنيْتُ عُمْرِي بانتظاريَ وَعْدَهَا ... وأَبْليتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ

فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ... ولا حبُّها فيما يَبِيدُ يَبِيدُ[2]

هذه الأبيات تتحدث عن العلاقة بينه وبين بثينة، وعن علاقتها به، والحرمان الذي يجده منها. نحس الاحساس باليأس، والغربة بالتشوق إلى موطن حبه وصباه، وتمنى أن يعود إليها ذات يوم فيجدد ما انقضى من ذكريات.

نلاحظ الإشارة إلى لحظات الأمل عند جميل إذ يتمنى لقاءها بعيداً عن أعين الناس ولو مره، فهذه المرة كافية لكي تجود له بودها ويجود هو، فهو لقاء لبث اللواعج المكبوتة. فهذه العلاقة

[1] الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر – القاهرة، ص83.

[2] ديوان جميل بثينة، ص39.

ليست طارئة بل متمكنة منذ زمن قديم، ترجع إلى أيام الطفولة، ونمت وزادت كلما كبرا، فهو حب لم ينقطع ولم يضعف، بل مستمر في قوة وشدة. لذلك هو حب دائم وأصيل.

وفجأة يصاب جميل بخيبة أمل في لقياها، حيث أفنى عمره في انتظار وعودها الكاذبة، إذ توعده ولا تفي به ويتكرر هذا الوعد والإخلاف، فيفنى عمره ويبلى شبابه. وكذلك يصف المعاناة التي يعانيها من هذا الحب فلا نال مراده، ولا نسي حبها. فهي معاناة مع المحبوب فقد فيها عقله. فوادي القرى لم يكن مكاناً عادياً، فهو رمز يحمل حبات الرمال، فيه أسرار تلك العلاقة، وتذكر الطفولة وأيام الصبا ومسارح الهوى، فهنا يذكر مكان المحبوبة، فيتمنى أن يبيت ليلة في تلك الوادي.

ولفظة "أبيتن" تؤكد تعبيره عن أمله وتخيله في المبيت واللقاء المأمول، وذلك بسبب العاطفة القوية. ونراه مبتهج ومسرور بأن هذا اللقاء أصبح قريباً والظفر به ممكناً حيث تهب عليه نسيمات من الاطمئنان واليقين "قد تلتقي الأهواء بعد تفاوت".

ومن خلال هذه الأبيات نلاحظ أن معاني الشعر العذري تدور "حول وصف ما يجده العاشقان، من لوعة الحب وعذابه، ووصف آثار الحرمان في النفس والجسد، وذكريات الحب مذ كان طفلاً ينمو في قلب العاشقين. ولا يتطرق الشاعر العذري إلى أية أوصاف حسية في محبوبته، ولا يتحدث عن مقومات جمالها، لا بمقياس مثال تقليدي، ولا بآخر واقعي إلا في حدود ضيقة.

وعادة يتفرغ الشاعر العذري تماماً لعشقه، يفنى فيه طاقته التعبيرية، فلا يشغل نفسه بموضوع آخر من موضوعات الشعر، كما أنه مخلص لمحبوبته لا يذكر سواها قط"[1]. فالعشق هو اتحاد بين قلبي العاشق والمعشوق وإن لم يتم وصال.

ويقول جميل بثينة في تمنيه:

فَيا لَيتَ شِعرِي، هَلْ أبِيتنّ لَيْلَةً كَليلَتِنا حتى يُرَى سَاطعُ الفَجرِ
تَجُودُ عَلَيْنَا بالحَـدِيثِ وَنَارَةً تَجُودُ عَلَيْنا بالرُّضَابِ من الثَّغْرِ
فَلَيتَ الهَوَى قد قَضَى ذاكَ مَرّةً فيَعلَمَ رَبي، عندَ ذلك ما شُكْرِي[2]

[1] الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، هدارة، ص262.

[2] ديوان جميل بثينة، ص59.

نلاحظ هنا الروعة في تعمق العاطفة، والعلاقة بينه وبين بثينة.

فالعاطفة ليست وحدها مثار الروعة بل الأسلوب الرائع والربط بين عاطفة الشاعر والفكرة، وحسن اختيار الألفاظ.

وجميل في هذه الأبيات يتمادى في أمله المستحيل، ويرتب على تحققه الذي لن يكون آمالاً فقط، ولكنه يتمنى أن يلتقي بها وحدها دون رفيقاتها ولو مرة. ليبيت معها ليلة فيسعد بقربها فيحدثها وتحدثه حديث حب وود. "وتجود علينا بالحديث"، وتارة بغيره.

فذكره الليل لأنه سر الجمال ومثير لكوامن الأشجان في وجود القمر، والنجوم، والهدوء النفسي مع النسيم العليل للشوق المبرح والهم الطويل.

وما يدور في الليل من تذكر وخيال، ومواقف متنوعة في تجربة عاطفية، سواء كان لقاء أو وداع.

فالعاطفة عند جميل داخلية واتصاله بالعالم الخارجي شبه معدوم، لذلك كانت عاطفته صادقة تهديه إلى تحمل الحس المرهف والرقة البالغة.

وإذا نظرنا إلى جميل في عاطفة الحب وما اشتعل بداخله من نيران العشق والهوى نجده يفكر حتى في لقياها بعد نوم الحراس، فيشفي غليله، فيقول:

يا ليتنا والمنى ليست مقربة أنا لقيناك والأحراس قد رقدوا

فيستفيق محب قد أضر به شوق إليك ويشفي قلبه الكمد[1]

يتمنى لقاءها بعد نوم الحراس، فتستيقظ بثينة من نومها فيبثها شوقه وحنينه ويشفي قلبه الكمد، دون أن يجد مغامرة مع الحراس. وبقول صريح يذكر أن أمنيته ليست قريبة منه.

فهنا تظهر الرغبة في اللقاء مع بثينة فيبثها شوقه وحنينه وحبه، مع خوفه من الحراس.

ويقول قيس ليلى:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة أُناجيكُمُ حَتَّى أرى غُرَّةَ الفجْرِ[2]

يتمنى المجنون لو التقى بها ليلة فيناجيها ويحدثها إلى وقت طلوع الفجر.

[1] ديوان جميل بثينة، ص54.

[2] ديوان قيس بن الملوح، ص35.

فهذا إن دلّ إنما يدل على حب قيس لليلى لا لزواجها وينتهي الحب، بل للحب نفسه، فإن كان قيس قد أحبها لحاجة في نفسه، فقد أصبح العشق يملك عليه كل وجوده وليس له فيه اختيار.

ويتمنى أماني كثيرة جداً، حتى ولو يلتقي بشخص رآها لكي يستأنس معه ويسأله منها، ولو ساعة فيقول:

ألا ليت عيني قد رأت من رآكم لعلي أسلو ساعة من هياميا[1]

في هذا البيت يمني نفسه بلقيا شخص رأى ليلى لكي يحدثه بأخبار ليلى فيتسلى بذكراها وسيرتها.

ويقول كذلك:

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة تمنيت أن ألقاك يا ليل خاليا[2]

يتمنى قيس لقيا ليلى لوحدها فيحدثها ويبثها شوقه، في وقت يتمنى الناس فيه الراحة والترويح عن النفس.

ويقول أيضاً:

فيا ليت ليلى وافقت كل حجـة قضاء على ليلى وأني رفيقها

فألقاك عند الركن أو جانب الصفا ويشغل عنا أهل مكة سوقها[3]

نرى شعر الأماني يتردد بين العاشق ومحبوبته كثيراً في شعر العذريين. حيث يصور الشاعر أحاسيسه تجاه حبه لمحبوبته، وشوقه وحرمانه، وذكرياته وأمانيه.

فقيس عاشق لليلى يتمنى لقياها في كل زمان ومكان، حتى في أيام الحج، ويمني نفسه بأن يكون هو رفيقها، حيث اللقاء عند الركن، أو في بداية السعي عند جبل الصفاء، في حين أن أهل مكة مشغولون عنهم، فيستمتع هو بصحبتها ورفقتها.

تمني الموت واللقاء بعده:

يقول جميل بثينة:

---

[1] المصدر نفسه، ص42.

[2] المصدر نفسه، ص57.

[3] ديوان قيس بن الملوح، ص118.

يَا لَيْتَنِي أَلْقَى الْمَنِـيَّةَ بَغْتَةً إِنْ كَانَ يَوْمُ لِقَائِكُمْ لَمْ يُقْدَرِ
ولتبكينّي الباكياتُ وإنْ أبحْ يوماً بسرِّكِ مُعلناً لم أُعذَر[1]

تمنى جميل الموت، إن كان القدر لم يكتب له فيه لقاء محبوبته، ولهذا لم يكن أمامه إلا تمني الموت في هذا اليوم، إذ أنه لا يرى فرق بين الموت والفراق، ولا معنى عنده للحياة بعد اليأس.

وكذلك يقول:

ألا ليتَنا نَحْيا جميعاً وإن نَمُتْ يُجاوِرُ في الموتى ضريحي ضريحُها
فما أنا في طولِ الحياة بِراغبٍ إذا قيلَ قد سويّ عليها صفيحهـا
أظلُّ، نهاري مُستَهاماً، ويلتقي مع الليل روحي في المَنام وروحُها
فهل ليَ في كِتمانِ حُبّيَ راحةٌ وهل تنفعنّي بَوحةٌ لو أبوحُهـا![2]

يتمنى جميل الحياة مع بثينة والموت معها، فالعيش معها في الحياة لا يكفيه، ولو أتاه خبر وفاتها يختار الموت معها، وأن يدفنا في قبر واحد.

ويصف لنا لوعته ويخبرنا أن هذا الحب ليس من جانب واحد، ولكنه شعور متبادل بينه ومحبوبته، ويؤكد ذلك بلقيا أرواحهم في المنام حيث يحمل كل منهما لصاحبه المودة والوفاء، ثم يسأل هل في الكتمان راحة له، أو البوح بحبها؟

ومن هنا نفهم أن جميل تمنى أن يستمر حبهما حتى بعد الموت.

وكذلك يقول:

ألا لَيتني قبلَ الذي قلتُ شِيبَ لي من المُذعِفِ القاضي سِمامُ الذَّرَارِحِ[3]

ويقول قيس ليلى:

ألاَ لَيْتَ يَوْمَاً حَلَّ بِي مِنْ فِرَاقِكُمْ تَزَوَّدْتُ ذاك اليومَ آخِرَ زادِيَا[4]

وأمنياته متواصلة حتى في مجاورتهما في اللحد وأن يكون لحدها له هو، فيقول:

---

[1] ديوان جميل بثينة، ص60.

[2] المصدر نفسه، ص29.

[3] المصدر نفسه، ص30، شيب: خلط. المذعف: المهلك سريعاً. السمام: جمع السم. الذرارح: جمع ذراح وهي: دويبة حمراء متقطعة بسواد تطير، وهي من السموم.

[4] ديوان قيس بن الملوح، ص42.

ألاَ لَيْتَ لحْدَكِ كان لَحْدِي إذَا ضَمَّتْ جَنَائزَنَا اللُّحودُ[1]

ويقول أيضاً:

هنيئاً مريئاً ما أخذت وليتني أراها وأعطي كل يوم ثيابيا

ويا ليتها تدري بأني خليلها وأني أنا الباكي عليها بكائيا[2]

في هذه الأبيات تمنى لقياها وأن تعرف صاحبها ويشكي لها ألم الشوق والفراق وقسوة الأهل، واللجوء إلى الله طلباً للرحمة وتخفيف المصاب بموتٍ أو بعودة وصال.

فنحس في هذه الأبيات اللوعة الصادرة عن الشعور بالحنين إلى المحبوبة.

تمني أن يكونا حيوانين أو طائرين:

نرى الحب والصبر والحنين بالرغم من بخل المحبوبة وصدودها وهجرانها للحبيب، وهذا هو آية العفة والسمو في الحب العذري.

يقول قيس ليلى في تأكيد رغبته في الفرار من الناس بأمنيات متعاقبة:

ألاَ لَيْتَنَا كُنَّا غَزَالَيــْنِ نَرْتَعِي رياضاً الحوزان في بلد قفر

ألا ليتنا كَنَّا حَمَامَيْ مَفَــازَة ٍ نطِيرُ ونَأوِي بِالعَشِيّ إلى وَكْرِ

إلا ليتنا حُوتاَنِ في البَحْرِ نَرتَعِي إذا نَحْنُ أمْسَيْنَا نُلَجِّجُ فِي الْبَحْرِ[3]

أمنيات قيس ليلى متعاقبة كلها رغبة في الفرار من الناس، حيث تمنى أن يكونا غزالين في بلد قفر، وفي البيت الثاني تمنى أن يكونا حمامي مفازة يحلقا سويا ثم يرجعا إلى عشهما. وأخيراً تمنى أن يكونا حوتان في البحر.

فشعراء الغزل العذري أخلصوا فيه لمعشوقة واحدة لم يتجاوزوها، لذلك نجد الأسلوب السهل والرقة في الألفاظ التي يستخدمونها.

فغزل هؤلاء الشعراء يصدر عن عاطفة صادقة وحب عميق ملك عليهم لبهم وسلبهم راحتهم فهم لا يرون في النساء إلا محبوباتهم وقد أوقفوا حياتهم عليها. وهذا يعتمد على صدق عاطفتهم وعفة قولهم، فهم لا يتناولون مفاتن الجسد ولا يصفونها. بل تعلق روحي تمليه النوازع القلبية

[1] المصدر نفسه، ص91.

[2] ديوان قيس بن الملوح، ص92.

[3] المصدر نفسه، ص90.

وتشيع فيه الشكوى من الفراق والبعد. فهم دائماً ما يذكرون ما أصابهم من تباريح هذا الحب وما يلاقونه من صدود الحبيب وجفوته، فيتضرعون مطالبين أن يمنّ عليهم حبيبهم بالصفح والعفو وإبداء المودة، ويتمنون لقياه والعودة إلى زمن الصبا، أو الهروب من الناس والعيش في سعادة.

وكثيراً ما نجدهم اتخذوا حرمانهم من حبهم للتعبير عن اليأس من وصل المحبوبة وبخلها، وأشواقهم وحنينهم وطموحهم في التمني والفوز بلقياها.

أما عن حديثنا عن الرقباء والواشين، فنقول:

هم الذين يرقبون العشاق، والواشي والرقيب شخصيات لا يكاد يغيب وجهها في شعر العذريين، حيث يرصدون حركاتهم وهمساتهم في شغف متواصل، وقد أفاض جميل في الحديث عن الوشاة، وجميل كما هو معلوم رائد في شعر الغزل العفيف وحامل للوائه، يقول عنه جرجي زيدان: " على أن إمام أهل النسيب والغزل في الإسلام جميل بن معمر الشاعر العاشق، كان معاصراً لعبد الملك. وهو الذي وطأ النسيب للشعراء، فأكثر منه وتفنن فيه.. لكنه كان يشبب بحبيبته بثينة، وهو في عرف أهل الأدب "إمام المحبين" فاستحسن الناس تشبيبه لأنه طبيعي صادر عن شعور صادق، فأخذوا يقلدونه فيه.. فينظم الشاعر أبيات الغزل أو النسيب لمحبوب وهمي استعار بعضهم أسماء حبيبات الشعراء العاشقين كليلى ودعد وهند فشببوا بهن تقليدا"[1].

"وكان سكان بادية الحجاز الذين توفرت فيهم العفة، وقوي عندهم الدين، واتسم شعرهم الغزلي بصدق العاطفة وصفاء النفس، ونقاء الحب وطهارته، وكان الحب عندهم – دائماً- ملتهب الحرارة عنيفاً عفيفاً، يقفون حبهم على امرأة واحدة، تتمنع عليهم ولا يطمعون منها في وصال، إلا تلك الزورات البريئة التي قلما تتاح، ولهذا نجدهم يكثرون من شكوى الوشاة ويبثون الحزن والصبابة والوجد في هذا الشعر الذي ينبع من قلوب أحبت فحرمت"[2].

[1] تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، راجعه شوقي ضيف، دار الهلال – مصر، ج1، 234 – 235.

[2] تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، ج2، ص255.

وقد تبدي المرأة التي يتتبعها المحب العذري صداً أو كرهاً لذلك المحب الشاذ، وقد تتزوج تلك المرأة وتربط سعادتها ومصيرها برجل آخر، ولكن محبها يظل على وهمه الأول ينظم فيها الأشعار، ويضرب في أزمات تذكره لها، عن الطعام والشراب حتى يهزل جسمه أو حتى يموت[1].

والشاعر العذري يتعلق بمحبوبة بعينها، لا يكاد يميل إلى غيرها، وتملك عليه كل تفكيره، فلا يستطيع التفكير في غيرها، ويعيش معها وتعيش معه في كل لحظة: في نومه ويقظته، في أحلامه ورُؤاه، في نهاره وليله، وهكذا حتى تحيله إلى كائن مسلوب الإرادة إلا قليلاً، إذا ما أراد أن ينتزع عقله من التفكير فيها، وهذا ما اسموه بالحب العذري الذي تمادى في بعض القصص القديمة حتى انتهى بالجنون، كما في قصة (قيس وليلى) حينما أصبح بطلها وليس له من شاغل في الحياة إلا الهيام على وجهه في الفلوات، والتغني بمن يهواها، وصارت محبوبته هي الصورة التي يراها في كل كائن تقع عليه عينه[2].

وبعد التحدث عن التمني وما يميز شعرهم، نجدهم دائماً يتحدثون عن الوشاة الذين كانوا أشد كرهاً لهم، وهذا شيء طبيعي؛ لأنهم يقطعون عليهم "لذة اللقيا ونعيمها، ولذلك فقد ذمهم الشعراء من قديم وتكلموا فيهم كثيراً، حتى إن كثير عزة تمنى أن يتحول هو وحبيبته إلى بعيرين يعزبان في الخلاء فلا يتبعهما أحد لكي يختليا بأنفسهم فينعما باللقاء الذي لا تشوبه نظرة عذول أو تسمع غيران حاقد"[3].

يقول جميل بثينة:

وأعرضْ إذا لاقيتَ عيناً تخافها ... وظاهرْ ببغضٍ، إنّ ذلك أستـرُ
فإنَّكَ إنْ عَرَّضْتَ فِينا مَقَـالَةً ... يَزِدْ فِي الَّذِي قَدْ قُلْتَ واشٍ ويُكْثِر
وينشرُ سرّاً في الصديقِ وغيره ... يعزُّ علينا نشرهُ حين ينشـرُ
فما زِلتَ في إعمال طَرفِكَ نحونا ... إذا جئتَ حتى كاد حبّكَ يظهـرُ
لأهليَ حتى لامني كلُّ ناصِحٍ ... وإني لأعصي نَهيهمْ حين أُزجَر
وما قلتُ هذا فاعلَمنّ تجنّبـاً ... لصرمٍ ولا هذا بنا عنكَ يقصـرُ

[1] الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، عمر فروخ، ص367 – 368.

[2] جرير حياته وشعره، نعمان محمد أمين طه، دار المعارف – مصر، ص255.

[3] المصدر نفسه، ص298.

ولكنّني أهلي فـداؤك أتّقي عليك عيونَ الكاشِحين وأحـذَر[1]

هنا تظهر الرغبة في اللقاء بالمحبوبة والخوف من الوشاة، فتتصارع مشاعر جميل وبثينة، فيضطروا إلى أن يظهروا غير ما يبطنون، ويبدوا البغضاء لبعضهم، حتى يتجنبوا عداء الأهل والناس. وكذلك نجده في التحايل المقترح من بثينة لجميل "وأعرض إذا لاقيت عيناً تخافها"، مع التظاهر بالبغض لها، وكل هذا وذاك حفاظاً على حبهم من أن يتناقله الوشاة؛ لأنهم وقفوا عائقاً أمام حبهم.

وكذلك يقول:

وكنّا جميعاً قبلَ أن يَظهَرَ النوى بأنعَمِ حَالَيْ غِبطَةٍ وسُـرورِ

فما بَرِحَ الواشونَ حتى بدت لنا بطون الهوى مقلوبـةً بظُهُورِ

لقد كُنتِ حَسبَ النَّفسِ لو دامَ وَصلُنا ولكنّما الدنْيا مَتاعُ غُرور[2]

نرى تعبيره في هذه الأبيات بالفقد والحنين لهذا الحب الذي أخلص فيه، حيث كان محب بالغ الوفاء لمحبوبته، وبأنعم حال وفي سرور تام، ولكن سرعان ما ظهر الواشون في حياتهم، حتى انقلب حبهم وتغير، فكان يتمنى دوام الوصال ولكن حال الوشاة دون ذلك، وهذا حال الدنيا. فيظل الشاعر في خوف دائم من الوشاة، وفي ظمأ واشتها لمحبوبته، وزفرات وأنين من بعدها.

ويقول أيضاً:

لعمريَ ما استودعتُ سريَ وسرها سوانا حذاراً أن تشيعَ السرائرُ

ولا خاطبتْها مُقلتايَ بنظـرةٍ فتعلمَ نجـوانا العيونُ النواظرُ

ولكن جعلتُ اللحظَ بيني وبينها رسولاً فأدّى ما تَجُنّ الضمائر[3]

الحب دائماً يكون في كتمان بين المحب والمحبوبة، وفي سرية كاملة خوفاً من إشاعته بين الناس فيكشفون أمرهم، ويمنعونهم من الزواج، ولكن إذا طغى وعلا يصيب المحب بالضنى القاتل، فيكشف أمرهما ويحصل الفراق بينهما، ويكون الفراق أشبه بالموت، فهو فقدان دائم في وجدان الشاعر.

---

[1] ديوان جميل بثينة، ص62.

[2] المصدر نفسه، ص66.

[3] المصدر نفسه، ص67.

ويقول جميل:

ألا إنها ليست تجود لذي الهوى بل البخلُ منها شيمةٌ والخلائقُ
وماذا عسى الواشونَ أنْ يتحدثوا سوى أن يقولوا إنّني لكِ عاشقُ؟
نعم، صدقَ الواشونَ أنتِ كريمةٌ عليّ وإن لم تَصْفُ منك الخلائقُ![1]

هنا نجد جميل في هذه الأبيات تعرض لصدمة واضحة في حبه لبثينة، حيث صرح بحبه لها ووصفها بأنها بخيلة، لم تبادله الشعور نفسه، إذ أن صفة البخل سجية فيها.

ومن ثم يقول لها: ماذا يعني لو تكلم الواشون وتحدثوا، أهناك شيء آخر أم يقولون إني لك عاشق؟ نعم صادقين فيما يقولون.

وكذلك نلاحظ أن جميل في هذه الأبيات لبس ثوب البطولة البدوية وتحدى الوشاة معلناً عشقه لها، فلا يهمه الوشاة ولا المجتمع، ولا الخلائق كلهم، بل همه الأول والآخر بثينة. وكذلك يقول عن الوشاة والعذال اللائمين:

لقد فرحَ الواشون أن صرمتْ حبلي بُثينةُ أو أبدتْ لنا جانبَ البُخلِ
وكم قد رأينا ساعياً بنميمــةٍ لآخرَ، لم يعمدِ بكفٍ ولا رجلِ[2]

هنا يتحدث جميل عن فرح الوشاة عندما يرون بخل بثينة عليه، وصدودها عنه وقطع العلاقة معه.

وكثيراً ما نجدهم يشكون من صدود المحبوبة، ومن ألم الحب؛ لأنهم يتعلقون بحبيبة واحدة تتمنع عليهم إذا ما التقوا بها، فهم لا يطمعون في الوصال، لذلك نجد لهم عاطفة تجاهها لا يصيبها الملل. ومع ذلك يخافون عليها من الواشي والرقيب، لأنهم الأكثر حباً وعشقاً.

وقيس ليلى لا يبعد كثيراً عن الحديث عن الوشاة والرقباء في شعره، فقد ذكر ذلك كثيراً وتبرم منهم ومن أقوالهم، وفي ذلك يقول:

يقول لي الواشون ليلى قصيـرة فليت ذراعاً عرض ليلى وطولها
وإن بعينها لعمرك شهــلة فَقُلْتُ كِرَامُ الطَّيْرِ شُهْلٌ عُيونُهـا

[1] ديوان جميل بثينة، ص95.

[2] المصدر نفسه، ص98.

وجَاحِظَة ٍفوْهاءُ، لاَبَأسَ إنَّهـا منى كبدي بل كل نفسي وسولها
فَدُقَّ صِلاَبَ الصَّخْرِ رأسَكَ سَرْمَداً فإني إلى حين الممات خليلـها[1]

فالعذريون هم الأكثر حباً وعشقاً، لذلك تناولوهم كثيراً في أشعارهم.

يقول أيضاً:

ألا أيُّها القومُ الَّذِينَ وَشَوا بنـا على غَيْرِ ما تَقْوَى الإله وَلا بِـرِّ
ألا ينْهَكُمْ عنَّا تُقاكُمْ فَتَنْـتَهُوا أَمَ أنْتُمْ أُناسٌ قد جُبلتُم عَلَى الكُفـْر
تعالوا نقف صفين منا ومنكـم وندعو إله الناس في وضح الفجـر
عَلَى مَنْ يَقُولُ الزُّورَ أوْ يَطْلُبُ الخَنَى ومَنْ يَقْذِفُ الخَودَ الحَصَانَ ولا يَدْرِي
حَلَفْتُ بِمَنْ صَلَّتْ قُرَيْشٌ وَجَـمَّرَتْ له بمني يوم الإفاضة والنحـر
ومَا حَلَقُوا مِنْ رَأْسِ كُـلِّ مُلَبِّيٍ صبيحة عشر قد مضين من الشهـر
لَقَدْ أصْبَحَتْ مِنِّي حَصَـاناً بَرِينَة ٍ مطهرة ليلى من الفحـش والنكـر[2]

وكذلك يقول:

وكم قائل لي أسلُ عنها بغيرها وذلك من قول الوشاة عجيب
لئن كان لي قلب يذوب بذكرها وقلب بأخرى إنهـا لقلوب
فيا ليل جودي بالوصال فإنني بحبيك هن والفؤاد كئيـب[3]

ويقول شاكياً متبرماً من رحيل الحبيبة وبعد فراقها:

إِلَى اللهِ أَشكُو نِيَّةً شَقَّتِ العَصَا هِي اليَومَ شَتَّى وَهْيَ أَمسِ جَميعُ
لَعَمْرُكَ إِنِّي يَومَ جَرعَاءِ مَالِكٍ لَعَاصٍ لأَمْرِ الْمُرْشِدينَ مُضِيعُ
نَدِمتُ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي فَقَدتُنِي كَمَا يَندَمُ الْمَغبُونُ حِينَ يَبِيـعُ
إِذَا مَا لَحَانِي العَاذِلاَتُ بِحُبِّهَا أَبَت كَبِدُ مِمَّـا أُجِنُّ صَدِيعُ
وَكَيفَ أُطِيعُ العَاذِلاَتِ وَحُبُّهَا يؤَرِّقُنِي وَالعَـاذِلاَتُ هُجُوعُ[4]

---

[1] ديوان قيس بن الملوح، ص65.
[2] ديوان قيس بن الملوح، ص68.
[3] المصدر نفسه، ص41.
[4] المصدر نفسه، ص86.

يتعرض الشاعر إلى لوم اللائمين ومراقبة الواشين الحاسدين، فيتخذ من هذا اللوم والمراقبة وسيلة للتعبير عن حبه.

فشعرهم لم يخل من بعض الإشارات الحسية لتحقيق لوم اللائمين، وكل هذه الأبيات حافلة باللوعة والهيام، والحنين والذكريات، والوجد والضنى والزفرات، والأنين والفرقة، واليأس والموت، وبخل المحبوبة وهجرها وصدودها، والخوف من الوشاة والرقباء.

المبحث الثالث: تعريف التمني وأدواته وخصائصه:

التمني عند البلاغيين هو: طلب الشيء المحبوب الذي لا يرجى حصوله، إما لكونه مستحيلاً، أو بعيد المنال.

مثال التمني المستحيل:

قوله تعالى على لسان مريم: (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)[1].

فالآية تتمنى فيها السيدة مريم عندما جاءها المخاض وخافت من تقوّل الناس عليها أن تكون قد ماتت قبل ذلك وكانت في عداد المنسيين.

وهذا التمني في الآية لا يرجى حصوله أبداً لأنه مستحيل.

ومنه في الشعر قول جميل بثينة:

ألا ليت ريعان الشباب جديد ودهراً تولى يا بثين يعود

فهو تمنٍّ مستحيل، فإن أيام الشباب لا تتجدد، والدهر الذي تولى لا يعود.

ومثال التمني البعيد:

قوله تعالى: (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)[2].

فالتمني هنا ممكن وجائز الوقوع لكنه بعيد المنال والتحقق، وأداة التمني الأصلية هي "ليت".

أما إذا كان المتمنى المطموع في حصوله ممكناً فيكون طلبه ترجياً، وتستعمل فيه ألفاظ الترجي "كلعل" و "عسى". كقوله تعالى: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)[3]، وقوله تعالى: (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ)[1].

---

[1] سورة مريم، آية: 23.

[2] سورة القصص، آية: 79.

[3] سورة عبس، آية: 3.

وهناك أدوات غير أصلية في التمني وتستعمل فيه لغرض بلاغي وهي:

هل: مثل قوله تعالى: (فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا)[2].

لو: مثل قوله تعالى: (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[3].

ومنه قول الشاعر:

ولى الشباب حميدة أيامه لو كان ذلك يشترى أو يرجع

فالمقام هنا مقام "ليت" لأن عودة الكفار إلى الحياة، وعودة الشباب من الأمور المستحيلة، ولكن لشدة ما أصابهم ظنوا المستحيل ممكناً، فاستعملوا "لو" التي تستعمل في الأمر الممكن بدل "ليت" لغرض بلاغي هو إبراز المتمني في صورة الممكن[4].

فهذا الأسلوب استخدمه العذريون كثيراً خاصة جميل وقيس، كقول جميل:

ألا هل لعهد من بثينة قد خلا وأورث شجواً لا يريمك من رد

وقوله:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي القرى إني إذا لسعيد

وقول قيس:

ألا هل إلى ليلى قبيل منيتي سبيل وهل للناجعين رجوع

وقوله:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة أناجيكم حتى أرى غرة الفجر

فهما قد استخدما الأداة "هل" وهي أداة استفهام تفيد التمني، كما استخدما "ليت" وهي الأداة الأصلية.

وأسلوب التمني عند الشاعرين له سياقات مختلفة وأدوات مختلفة سنقف عندها في الدراسة لنرى علامة هذا الأسلوب بأمانيهما، وسبب الإلحاح عليه والتعبير بواسطته، خاصة الأداء "ليت".

---

[1] سورة المائدة، آية: 52.

[2] سورة الأعراف، آية: 53.

[3] سورة الشعراء، آية: 102.

[4] أُنظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، ط3، 1978م، ص172 – 175.

المبحث الرابع: خصائص أسلوب التمني عند الشاعرين:

من خلال سياقات أسلوب التمني عند جميل وقيس في المبحث السابق، فقد لاحظت أن لكل سياق من سياقات التمني، مفردات، وجملاً، وأفعالاً، وأدوات تناسبه.

ففي سياق تمني الرجوع إلى الماضي:

ألاحظ الآتي: الافتتاح بأداة الاستفتاح "ألا"، وهي أداة لها استخدامات مختلفة، جاء في المغني: "ألا" بفتح الهمزة والتحقيق على خمسة أوجه.

أحدها: أن تكون للتنبيه فتدل على تحقيق ما بعدها. والثاني: للتوبيخ والإنكار. والثالث: التمني. والرابع: الاستفهام. والخامس: العرض والتحضيض[1].

وأداة التمني التي تليها "ليت" وهي الأداة الأصلية للتمني. تليها أحياناً "هل" الاستفتاحية، يلي ذلك المتمنّ وهو رجوع الدهر، وهنا تكون المفردة "العهد" و"الدهر" و"اليوم".

"ألا هل لعهد من بثينة"، "ألا ليت يوماً"، "فيا ليت أن الدهر جاد برجعة"، "ألا ليت أياماً مضين رواجع".

وفي تمني اللقيا بعد طول فراق:

يأتي كذلك الاستفتاح بالأداة "ألا" الاستفتاحية ومعها مفردة "شعري" "ألا ليت شعري" ومعناها: ليتني أشعر، أي ليتني أعلم، وهي هنا حين تأتي تفيد مزيداً من التنبيه[2].

وأداة التمني هي الأداة الأصلية "ليت"، تليها هل الاستفتاحية، والمتمنى رجوعه هو "ليلة".

"فيا ليت هل أبيتن ليلة"، "ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة * أناجيكم".

تمني الموت واللقاء في اللحد:

الاستفتاح هنا كذلك بالأداة "ألا" الاستفتاحية، تليها أداة المتمني الأصلية "ليت"، يليها غالباً المتمنى وهو "اللحد" أو "الضريح".

ألا ليت لحدك كان لحدي إذا ضمت جنائزنا اللحود

وكذلك:

---

[1] أُنظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين، المكتبة العصرية – بيروت، 1987م، ج1، ص68 – 69.

[2] أُنظر: دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط1، 1979م، ص203 – 213.

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت يجاور في الموتى ضريحي ضريحها

تمني أن يكونا حيوانين أو طائرين:

الافتتاح كذلك بالأداة "ألا"، وأداة التمني هي الأداة الأصلية "ليت"، يلي الأداة الفعل الناقص "كنا".

والمتمنى حيوان إما "غزال" وإما "طائر" وإما "حوت"، يلي ذلك فعل مضارع متمنى "نرتعي"، "نرتعي"، "نطير".

"ألا ليتنا كنا غزالين نرتعي"، "ألا ليتنا كنا حمامي مفازة نطير"، "ألا ليتنا حوتان في البحر نرتعي".

جدول لسياقات التمني عند جميل وقيس:

تمني الرجوع إلى الماضي:

المتمني	أداة الاستفتاح	أداة التمني	أداة الاستفهام	المتمنى
الرجوع إلى الماضي	ألا	ليت		اليوم، الدهر، العهد
تمني اللقيا بعد طول فراق	ألا	ليت	هل	ليلة
تمني الموت واللقاء في اللحد	ألا	ليت		لحد، ضريح
تمني أن يكونا حيوانين أو طائرين	ألا	ليتنا		غزالين حمامي مفازة حوتان

وفي قراءتنا لهذا الجدول الذي يوضح سياقات التمني عند جميل بثينة وقيس ليلى نستخلص الآتي:

أولاً: كثرة الاستفتاح بأداة التمني "ألا" وهي هنا تفيد التمني.

أداة التمني هي الأداة الأصلية وهي: "ليت"، ورود أداة الاستفهام "هل" وهي هنا تفيد التمني.

ثانياً: المتمنى هنا أنواع:

فهناك تمنٍ بعودة الماضي وله نوعان: إما عودة إلى ماض كبير واسع ممتد وهو العودة إلى عهد الشباب وماضيه:

ألا ليت ريعان الشباب جديد ودهراً تولى يا بثين يعود

وهنا يكون التعبير "بالعهد" و"الدهر" و"اليوم".

"ليت يوماً، "ليت أن الدهر"، "ليت أياماً"، "ليت ريعان الشباب".

وإما عودة إلى ليلة مشهودة التقى فيها الشاعر بمحبوبته بمكان من أمكنة اللقاء "بوادي القرى" وتناجيا فيها "حتى ساطع الفجر"، "حتى غرة الفجر" وهي ليلة مشهودة معروفة "كليلتنا".

فالتمني الذي يريده الشاعر هنا هو العودة إلى أيام الشباب، والمرح، واللقاء الدائم.

صبيان نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم يكبر البهم

أو تمنٍ ليلة التقيا فيها وتناجيا، والنوعان من هذا التمني قد عاشهما الشاعر مع المحبوبة فيما مضى في ماضي أيام الشباب، وفي ليلة لقاء مشهودة، فهو يتمنى دوام الحياة مع المحبوبة.

ولكن الشاعر قد يصل به اليأس إلى تمني الموت والخروج من الحياة، إلى اللقاء في عالم الأموات فيكون اللقاء في اللحد: "يجاور في الموتى ضريحي ضريحها" والضريح أوسع من اللحد، فاللحد يجمعهما، والضريح يجاورهما.

وتمنيات الشاعر هنا ما زالت في عالم الأَناسِّ حياً كان مع محبوبته، أو ميتين.

إلا أن اليأس يصل بالشاعر إلى تمني الخروج من عالم الإنس، إلى عالم الحيوان - إلى عالم الغزال في الرياض، والطير في الأوكار، والحيتان في البحر "غزالين نرتعي"، "حمامي مفازة نطير"، "حوتان في البحر نرتمي".

ثالثاً: قد يرجع الشاعر إلى نفسه فيدرك أنه في عالم الواقع، وأن أمانيه لا سبيل إلى تحققها، وأنها من باب المستحيل فيسلي عن نفسه بأنها أمان لا تتحقق فيقول:

"يا ليتنا والمنى ليست مقربة"، أو يقول: "وهيهات إن الدهر ليس بعائد"، أو يقول متمنياً: "وهل للناجعين رجوع؟".

ولا راحة له، ولا سلوى إلا الرجوع إلى الإيمان والشكوى إلى الله بما فعلته به الأيام.

إلى الله أشكو نية شقت العصا هي اليوم شتى وهي أمس جميع

رابعاً: وجد الشاعران في أسلوب التمني متنفساً، يخرج ما بداخلهما من أنات، وآهات، وتوجع، وتفجع.

فالاستفتاح "بألا" فيه مد للصوت، وفيه تنبيه: "ألا أيها النوّم ويحكم هبوا".

والتمني بكلمة "ليت" وراؤه أشواق ورغبات لا سبيل إلى تحققها إما لأنها مستحيلة، وإما لأنها بعيدة التحقق.

يقول الدكتور أبو موسى: "إنّ وراء كلمة ليت في أكثر مواقعها ظمأ لا يروى، وأنها تصف آمالاً حبيسة ورغائب لا سبيل إلى تحققها.. ورغائب النفوس ومشتهياتها ليست مقيدة بحدود الإمكان، وفرق بين الآمال التي يراد تحقيقها واتخاذ الوسائل إليها، وهي بالطبع خاضعة للتفكير والإمكان، وبين أشواق الروح وتطلعاتها التي لا تحدها حدود"[1].

خامساً: وظف الشاعران هذا الأسلوب فامتزجا به مع الطبيعة بإنسانها، وحيوانها، ونباتها، وجمادها.

وختاماً: حاولت في هذه الدراسة أن اذكر بعض أبيات التمني في شعر جميل بثينة، وقيس ليلى، ولا ادعي بأني احطت بكل ما ذكروه في التمني، ولكن ما ذكرته يعتبر نماذج فقط من شعرهما.

إذ أن أداة التنبيه "ألا" وحرف النداء "يا" هما المسيطرن، وأداة التمني "ليت" هي المستخدمة كثيراً في شعر العذريين.

فوجدت في شعرهما تعلق روحي بالمحبوبة تظهر فيه الشكوى من الفراق والبعد، وعندما يصفونها نجد العواطف الحارة الصادقة التي تعذّب صاحبها دون أن تنتج له لذة مادية حسية، إذ أن علاقتهما قديمة ترجع لأيام الصبا، حيث نمت وزادت كلما كبرا، لذلك يجنيان لذة الألم في الحب ولوعة الاشتياق، فهما محرومان من الوصول.

المصادر والمراجع:

1) الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، عمر فروخ.
2) أعلام النساء، لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، ط10، ج4.
3) الأغاني، للأصفهاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1415هـ، ج2.
4) تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان، راجعه شوقي ضيف، دار الهلال . مصر، ج1.
5) تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، ج2.
6) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين – بيروت، ط2، 1969م.
7) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، للدكتور شكري فيصل، دار العلم للملايين – بيروت، ط6، 1982م.

[1] أُنظر: دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، 203 – 213.

8) جرير حياته وشعره، نعمان محمد أمين طه، دار المعارف – مصر.
9) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر – القاهرة.
10) دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط1، 1979م.
11) ديوان أبي العتاهية، دار صادر – بيروت، 1964م، ج1.
12) ديوان جميل بثينة، دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت، 1982م.
13) ديوان عمر بن أبي ربيعة، يوسف شكري فرحات، دار الجيل – بيروت.
14) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: محمد خداش، دار الغد الجديد – القاهرة، ط1، 2014م.
15) ديوان قيس بن الملوح، رواية أبي بكر الوالبي، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1999م.
16) ديوان قيس بن ذريح (قيس لبنى)، اعتنى به وشرحه، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، ط2، 2004م.
17) الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، الدكتور محمد مصطفى هدارة، دار النهضة العربية – بيروت، 1995م.
18) الغزل في الشعر العربي، سراج الدين محمد، موسوعة روائع الشعر، دار الراتب الجامعية – بيروت، ج4.
19) في أدب الإسلامي (عصر النبوة والراشدين وبني أمية) دراسة وصفية تحليلية، محمد عثمان علي.
20) في النص الإسلامي والأموي – دراسة تحليلية، نبيل المحيش وآخرون، المختار للنشر والتوزيع – القاهرة، 2006م.
21) اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، عالم الكتب، ط3، 1998م، فصل الظواهر السياقية
22) محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي، يوسف شحدة الكحلوت، مدرس المساق، 2009م.
23) محاضرات في شعر علي محمود طه، نازك الملائكة، البصرة، 1964م.
24) المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، ط3، 1978م.
25) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين، المكتبة العصرية – بيروت، 1987م، ج1.
26) منهج السياق في فهم النص، د. عبد الرحمن بودرع، كتاب الأمة – قطر عدد: 111.
27) نشور المحاضرة، للتنوخي، ج5.
28) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، باب الغزل، والنسيب، والهوى، المؤسسة المصرية العامة . القاهرة، (195 ،) م، ج1.